المقصدية الجمالية في القصص القرآني

The Esthetical intentionality in Coranic stories

د. رزيق محمد

جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف

البريد الالكتروني: rsedik@ymail.com

تاريخ الإرسال: 2018/12/15 **تاريخ القبول:2019/10/22** **تاريخ النشر: 2019/12/12**

ملخص:

القصة في القرآن الكريم من وجهة النظر الادبية هي إحدى وسائل الخطاب القرآني لتبليغ الدعوة و تثبيتها، مع خضوعها الكامل للغرض الديني ، لكن سيداً يرى بروز الخصائص الفنية في عرضها.و لا سيما خصيصة القرآن الكبرى في التعبير. هي التصوير ،فالقصة تحمل منهجا فنيا متكاملا يشكل البناء الفني للقصص عموما،أما الفن فهو أداة من الأدوات التي يعتمدها الخطاب القرآني للتأثير الوجداني و تحقيق الاستجابة النفسية و الوجدانية، من غير أن يجرِّدَ النص القرآني من صدقه و واقعيته.

الكلمات المفتاحية: القصة ، التصوير الفني ، الخطاب القرآني ، الفنية ، النص القرآني .

ABSTRACT :

A poem in the Holy Quran from the point of view is one of the means of the Qur'anic discourse to inform and confirm the vocation, with its full submission to the religious purpose, but Sida sees the emergence of artistic characteristics in its presentation. Is the photography, the story carries an integrated technical approach is the artistic construction of stories in general, but art is a tool of the Koranic discourse to affect the emotional and psychological response and emotional response, but does not strip the Koranic text of sincerity and realism.

Keywords: ***Story, Aesthetic expression, Quranic discourse , artistic, Qur'anic text.***

مقدمة :

رغم تفاوت و تنوع وجهات النظر ، تبقى القصة في القرآن الكريم تتوفر على مميزات تنفرد بها كجمال البيان و قوة العرض و جاذبيته ، و التزامها الصادق بالواقع التاريخي ، و شمولية موضوعاتها و رفعة الهدف وسموه ،لأن القرآن الكريم رسالة هداية إلى الناس، و قد عول النص القرآني على خطاب متنوع الأساليب بتنوع المواقف، فهو يأخذ بأسلوب الترغيب و الترهيب حينا، و أسلوب الإقناع العقلي حينا آخر،و يخاطب الفطرة والوجدان و الضمير أحيانا كثيرة، والقصة من أهم الروافد التي يعتمدها القرآن الكريم كغرض من أغراض التعبير لتحقيق هذه المقاصد والغايات التي تنسجم مع مقتضيات العقيدة الإسلامية .

القصة في القرآن الكريم " ليست عملا فنيا مستقلا في موضوعه و طريقة عرضه و إدارة حوادثه . . . إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه الدينية "[1].

القصة في القرآن الكريم :

القصة في القرآن الكريم من وجهة النظر الادبية هي إحدى وسائل الخطاب القرآني لتبليغ الدعوة وتثبيتها، مع خضوعها الكامل للغرض الديني ، لكن سيداً يرى "بروز الخصائص الفنية في عرضها.و لا سيما خصيصة القرآن الكبرى في التعبير. هي التصوير"[2]،فالقصة تحمل منهجا فنيا متكاملا يشكل البناء الفني للقصص عموما،أما الفن فهو أداة من الأدوات التي يعتمدها الخطاب القرآني للتأثير الوجداني و تحقيق الاستجابة النفسية و الوجدانية، من غير أن يجرّدَ النص القرآني من صدقه و واقعيته ، لان "من أولى شرائط العقيدة الإسلامية في سائر مسائلها الكلية و الجزئية أن تقوم على أساس من اليقين العقلي الصحيح،وفي تقرير هذا المبدأ يتجه الخطاب الإلهي إلى الإنسان"[3].

لقد سمت القصة القرآنية فوق كل ما ينسب إليها من تلفيق[4]، لأنها تقوم على الحقيقة المطلقة،ومع ذلك لم تخل من السمات الفنية البارزة،الأمر الذي يدل بوضوح على مدى الإبداع القرآني وروعته،في حسن التأليف بين الغرض الديني والغرض الفني معا اعتمادا على تقنية السرد ، لا مجرد سرد الأخبار للإمتاع و الترفيه ، بل لتحقيق غايات مرتبطة بخدمة مقاصد تهدف في العمق إلى بناء الإنسان المسلم وفق المنهج الذي ارتضاه الله تعالى لعباده .

جمالية القصص القرآني :

إن اللمسة الجمالية التي تجلت في البناء القصصي القرآني لا تجرده من صدقه و واقعيته ، " و إذا جاز لنا نحن البشر ، أن نلجأ إلى الخيال والوهم لننسج منها قصصا ، فمرد ذلك إلى عجزنا في تصوير الوقع كي يسعفنا بما نتصوره و نتملاه وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، لان قدرته لا يعجزها شيء تريد فيقع ما تريد كما إرادته ، إنها إرادة لا يخالطها وهم و لا يطوف بها خيال ، و لا تعللها الأماني "[5] .

إن خضوع خصائص الصورة الأدبية في القصص القرآني للغرض الديني من حيث التنوع في طريقة العرض بما يتناسب مع السياق العام للآيات ، يفسح للخيال أجواء لا نهاية لها ، و يمكن المتلقي من التفاعل مع هذه الأجواء بطريقة ايجابية تتناسب مع مقصديات الخطاب القرآني ، هذه المقصديات ترمي في العمق إلى الكشف عن الصراع بين الخير و الشر ،من خلال الأحداث و الشخصيات و المواقف في أسلوب فني وإبداعي مؤثر ، و يحولها إلى لوحة فنية متناسقة من حيث مقاصدها و عبرها و تعابيرها.

تبرز تقنية التكرير باعتبارها خصيصة فنية وأسلوبية ذات بعد دلالي محوريّ، وإذا كان التكرار تقنية أسلوبية شائعة في الآداب العربية القديمة إلاّ أنها اتخذت أبعادها السحرية في لغة القرآن ، مثلها في ذلك مثل باقي صور الإعجاز ودلائله ، ولعلّ من أبرز وجوه التكرير في لغة القرآن وأساليبه الغلابة تلك الآثار التي تخضع الحدث المقصوص للغرض الديني المتوخّى ، يتجلى ذلك المنحى ويتأكد ذلك المنهج الفنّي في النماذج القصصية التي يوظف فيها دلاليا وفنيا جماليا تكرار بعض الأحداث في القرآن الكريم في مواضع شتى من آيه ، لكن التكرار على غير سابق هنا يأتي طابعا بعض أجزاء القصة من الحادثة القرآنية و من النادر جدا إن

تتكرر القصة في سياقات محددة[6] ، و تتعدد الأغراض الدينية ، و لكنها تنتهي في الأخير عند إثبات الوحي والرسالة ، و أن الدين كله من عند الله ، و أن المؤمنين كلهم أمة واحدة ، ةبالإضافة إلى بيان الفارق بين حكمة الإنسانية و الحكمة الكونية و عاقبة الصلاح وعاقبة الفساد . . . ،انه تكرار لكنه " ليس في القصص القرآني ذلك التكرار المطلق، الذي يخيل لبعض من يقرؤون القرآن ، بلا تدقيق أو إمعان" [7] ،إذ في أعقاب كل قصة يقف القارئ على تعقيب ديني يناسب العبرة فيها، كقوله تعالى : " أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ۖ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"[8] ، فقد تناسب موضوع القصة مع السياق العام الدال على الغرض الديني وهو قدرة الله على مل شيء " إن المشهد ليرتسم للحس قويا واضحا موحيا ، مشهد الموت و البلى و الخواء . . . و هكذا يلقي التعبير القرآني ضلاله و إيحاءاته ، فيرسم المشهد كأنما هو اللحظة شاخص اتجاه الأبصار والمشاعر" [9] .

جماليات مقصدية القصص القرآني :

ومثلما هو باد وواضح فإن الخطاب القرآني يسفر عن غاياته المنهجية التي أسمى من أجلها كتابه : في ظلال القرآن ، فقد كان حريصا على توكيد ظلال الدلالة القرآنية الوارفة التي لا تسعها الأمكنة وإنما هي ظلال الإيمان في تربة القلوب، تتسع حتى لا نهاية وتتوطد إلى أن تغدو دالة على ربها مسبحة بحمده ، واتساقا مع ذلك المؤدى المنهجي فإن سيدا ينحو من أجل تقوية السياق القرآني وتوطيد عراه البيانية في القلوب المتأملة المتفكرة في براهينه ، مستوعبا الغايات التي تضمنها الوحي الرباني ، وسطرها البيان القرآني على تلك الغاية ووثقها على ذلك النحو البلاغة والبيان ، والقرآن وإن تنوعت أساليبه البيانية من فن وجمال ودلّ إلاّ أن الغاية الغالبة ظلت ترمي إلى تحقيق الإعجاز بفضل تلك الأدوات والوسائل اللغوية والتصويرية والقصصية كل فضل فيها يجري إلى هدف مسمىّ تطلبته العناية الربانية أن يكون كذلك .

إن المتدبر لآي القصص القرآنيّ ، و المتمعن في أغراضها و معانيها يدرك بما لا يساوره شك تميزها بطابع الصدق من الوجهتين الموضوعية و الفنية ، يظهر هذا الطابع في الأحداث و الشخصيات من حيث " مواقفهم و تصرفاتهم التي تمليها نوازع نفسية راسبة في شعور الإنسان لأنها من طباعه ، و أما الوجهة الفنية، ففي تصويره للشخصية من خلال الحوار، تصويرا حيا و في دقة نقله لمشاعرها ، و تعبيره عن مواجيدها و أحاسيسها و هذه وظيفة الفن "[10] ، فيكون بذلك القصص القرآني قد جمع بين الصدق الواقعي و الصدق الفني لاستنهاض مدارك العقل و تحريك جذوة القلب "لينهض كل بعلمه ، و ليسهم كل منهما في تحقيق إنسانية الإنسان ثم في إقامته على صعيد من العبودية التامة لله عز و جل "[11] .

تجليات التنسيق الفني في القصة القرآنية :

القصة في القرآن الكريم أداة من أدوات الدعوة ،ونشر العقيدة الإسلامية ، لإرساء دعائم التوحيد في الأرض في حلة تميز بها أسلوب القرآن في عموم آياته ، و في القصة أيضا ، وهكذا " التقى الغرض الديني بالغرض الفني ، لان القصة من صور البيان العربي ، و وسيلة من وسائل نشر الدعوة ، فضلا إن لكل قصة شخصية مميزة،و روحا متفردة يعيش معها المتلقي كما لو كان يعيش عصرها،ويشارك الأحداث و الحوار و الصراع . . . ففي القصة القرآنية ثروة من الحقائق والمعارف، و ثروة من التصورات و التوجيهات . . . "[12] .

و أحسب أن النص القرآني كان أوفر حظا في التصور النصي للقرآن ، كما كان يراعي مقتضى النص من خلال احتكامه للنص في الأساس ، و كان أيضا على دراية بأهمية التصوير الفني في إبراز المقصديات القرآنية، و أن مناط تحقيق هذه المقاصد ينهض في جزء كبير منه على الجمال الفني في الصياغة و العرض لأحداث القصة ، لذلك كان يقول بان القرآن الكريم " يجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني ، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية ، بلغة الجمال الفنية "[13] ، و في سورة الأعراف تناسق في العرض يتجلى في سياق القصة ، الذي جمع بين الغرض الديني والأسلوب الأدبي المتميز في نسق محكم متوازن ، فوفى بكل شروط التعبير ، ومركبات السرد المؤثرة .

و ما كان القرآن الكريم – كتاب العربية الأول – ليهتم بالقصة دون يضفي عليها من التعابير الفنية و الجمالية ، و عناصر البناء القصصي ما يؤهلها لتكون من أهم قنوات الاتصال و التبليغ ، و تحقق الغرض الديني عن طريق الجمال الفني ، إذ أن هذا الجمال يجعل ورودها إلى النفس أيسر ، و وقعها في الوجدان أعمق "[14].

تنهض القصة من الناحية الفنية على خصائص توجزها سيد فيما يلي :

- تنوع في طريقة العرض ، يستهل القرآن القصة بملخص ، ثم يتلوها تفصيل لأحداث القصة ، و مثل ذلك سورة الكهف ، فهي تبدأ بقوله تعالى: " أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا "[15]، بدأت القصة بملخص ، ثم أعقبه تفصيل يتناول وقائع تتعلق بهؤلاء الفتية " هو تلخيص يجمل القصة ، و يرسم خطوطها الرئيسية العريضة ، فنعرف أن أصحاب الكهف فتية - لا نعلم عددهم - . . . و إن قصتهم على غرابتها ليست بأعجب آيات الله ، وفي صفحات هذا الكون من العجائب و في ثناياه من الغرائب ما يفوق قصة أصحاب الكهف و الرقيم . . . وبعد هذا التلخيص المشوق للقصة يأخذ السياق في التفصيل "[16] .

- ابتداء القصة بحديث عن المغزى و العاقبة ، ثم يعقبها تفصيل لخطوات أحداث القصة ، كقصة يوسف في قوله تعالى " إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ، قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ، وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ

أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ " [17] ، بدأت القصة بتقديم يتناسب مع التعقيب عليها " فهناك حبكة بين المقدمة للقصة و التعقيب عليها ، ظاهر منه نزول التقدمة مع القصة و التعقيب . . . إن قصة يوسف – كما جاءت في هذه السورة – تمثل النموذج الكامل للمنهج الإسلامي في الأداء الفني للقصة " [18] .

- ابتداء العرض مباشرة بدون مقدمة أو تلخيص ، و قد يحيل القصة تمثيلية ، كما في قوله تعالى :" وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ "[19] ، فالسياق القرآني يذكر من الألفاظ ما يدل على بداية العرض، ثم يفسح المجال لأحداث القصة تنبئ عن نفسها من خلال الشخصيات " و بينما نحن في انتظار بقية الخبر إذا بالسياق يكسف لنا ، و يرينا إياهما ، كما لو كانت رؤيا العين لا رؤيا الخيال . . . فنغمة الدعاء ، و موسيقى الدعاء ، كلها حاضرة كأنها تقع اللحظة حية شاخصة متحركة . . وتلك إحدى خصائص التعبير القرآني الجميل ، رد المشهد الغائب الذاهب ، حاضرا يسمع و يرى ، و يتحرك و يشخص ، و تفيض منه الحياة . . إنها خصيصة التصوير الفني بمعناها الصادق، اللائق بالكتاب الخالد "[20] ، أما الخاصية الثانية بعد تنوع طريقة العرض ، فان سيد يسميها (تنوع طريقة المفاجئة) ، و ملخصها إن المشهد القرآني يحتفظ لنفسه بعنصر المفاجئة ، ثم يكشفه بعد ذلك ، و من الأمثلة قصة موسى مع العبد الصالح في سورة الكهف ، فقد احتفظ النص القرآني بكل المفاجآت ، يجهلها موسى عليه السلام، و يجهلها المتلقي (سواء كان قارئا أو متلقيا) ، " فنحن أمام مفاجآت متوالية ، لا نعلم لها سرا ، و موقفنا منها كموقف بطلها موسى . . .كل الجو غامض مجهول . . .ثم يأخذ السر في التجلي " [21] .

الخاصية الفنية الثالثة في عرض القصة تلك الفجوات بين المشهد و المشهد ، والفجوة في القصة القرآنية تعني مرحلة الانتقال من مشهد إلى آخر ، و يمثلها ذلك الفراغ الذي يفصل بين المشهدين ، و في القرآن الكريم نماذج كثيرة ، و في قصة يوسف عليه السلام أمثلة لعديد المشاهد منها هذان المشهدان بين يعقوب و بنيه ، قال الله تعالى: "وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ، يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ"[22] ، ويتوقف المشهد لبرهة من الزمن ، ليعقبه مشهد أبناء يعقوب في مصر يقفون أمام أخيهم يوسف " فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ "[23] .

خاتمة :

وبالتساند إلى جملة الإيحاءات التي اشتملت عليها القصة القرآنية في منهج القصص القرآني فإنه يمكننا القول : المنهج القصصي متميز بفضل روح الإقدام التي نقلت هذا المنهج من سياقاته التاريخية

الأخلاقية والفقهية إلى أن يرتمي في أحضان المعارف الحضارية المعاصرة والتي استطاع القصص القرآني أن ينزاح بها مقاربا أساليب التصوير الأدبي حتى اكتسب صيتا لا يضاهي .

المصادر والمراجع:

1 سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن ، دار الشروق ، القاهرة مصر ، 1983 ط8.

ص 143.

2 المرجع نفسه ص 143.

3 محمد سيعيد رمضان البوطي ، من الفكر و القلب، دار الهدي للطباعة و النشر و التوزيع ، د ت / د ط . ص 63.

4 محمد احمد خلف الله ، الفن القصصي في القرآن الكريم ، مكتبة الانجلو مصرية القاهرة 1972. ط4 . ص255.

5 محمد الدالي ، الوحدة الفنية في القصة القرآنية ، مون للطباعة و التجليد 2001 ط1 . ص 9.

6 سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن الكريم ، ص155 و ما بعدها .

7 سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن الكريم . ص 168.

8 سورة البقرة 259.

9 سيد قطب ، في ظلال القرآن ، دار الشروق بيروت لبنان ، 1982. ط10. مج1 ج 3 ص299.

10 نقرة التهامي ، سيكولوجية القصة في القرآن الكريم ، الشركة التونسية للتوزيع تونس 1974. د ط ص 248.

11 محمد سعيد رمضان البوطي ، من الفكر و القلب فصول من النقد في العلوم و الاجتماع و الأدب ، ص 97.

12 الدالي محمد ، الوحدة الفنية في القصة القرآنية ، ص 18.

13 سيد قطب التصوير الفني في القرآن ص 171.

14 المرجع نفسه ، ص 180.

15 سورة الكهف 9-10-11-12.

16 سيد قطب ، في ظلال القرآن مج4 ج 15 ص 2261.

17 سورة يوسف 4-5-6.

18 سيد قطب ، في ظلال القرآن مج4 ج 12 ص 1949-1951.

19 سورة البقرة 126.

20 سيد قطب ، في ظلال القرآن مج1 ج1 ص 114.

21 سيد قطب التصوير الفني في القرآن الكريم ص 184-185.

22 سورة يوسف 84-85-86.

23 سورة يوسف 88.